١ـ الكلاسيكية (الاتباعية)

Classicism

أول مذهب أدبي نشأ في أوروبا بعد حركة البعث العلمي في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، حيث أراد الأوربيون إحياء أدبهم ، فاعتمدوا على روائع الأدبين اليوناني والروماني اللذين رأوا فيهما النموذج الأرفع لهذا الإحياء ، فتمت محاكاة هذا النموذج عن طريقين :

١ ـ محاكاة أدباء الإغريق والرومان ، وتحليل آثارهم ودراستها ، واستنباط الأصول الفنية التي قامت عليها . وكان من أبرز هذه الآثار ملحمتا الإلياذة والأوديسة لهوميروس ، ومسرحيات سوفوكليس ، وإسكيلوس ، ويوربيدس وغيرهم .

٢ ـ الاعتماد على الأصول النظرية التي استخلصها كبار فلاسفة اليونان والرومان ، من أمثال أفلاطون ، وأرسطو ، وهوارس . وعُدّ ما وضعه ـ أرسطو بشكل خاص ـ في كتابيه «الخطابة» و «الشّعر» من الأصول والقواعد المصدر الأساس الذي اعتمدت عليه الكلاسيكية .

الخصائص العامة للمذهب الكلاسيكي :

١ ـ الأدب الكلاسيكي هو أدب تقليد واتباع ، وليس أدب تجديد وإبداع . ارتبط عند الأوربيين بتراث اليونان والرومان ، واحتذائه والخضوع لقواعده .

ومن ثم كان الأدب الكلاسيكي أدباً محافظاً ، لا يسمح بأي تجديد أو تطوير إلا إذا كان جزئياً وشكلياً ، وكان يخضع للقواعد الكلاسيكية .

٢ ـ اهتمت الكلاسيكية بالأدب التمثيلي خاصة ، والمأساة (التراجيديا) بوجه أخص ، وخضعت المسرحية عندهم للقواعد التي وضعها أرسطو ، فهي تكتب شعراً ، وتتقيّد بالوحدات الثلاث : وحدة الموضوع ، ووحدة الزمان ، ووحدة المكان . ولا يجوز المزج بين المأساة والملهاة . والمأساة مسرحية جادة نبيلة ، تثير الشفقة والخوف ، أسلوبها رفيع رصين ، شخصياتها من الملوك والأمراء والنبلاء ، بل

اقتُبست أحياناً من حياة اليونان والرومان الأقدمين . وأما الملهاة (الكوميديا) فهزلية تثير الضحك للتسلية ، أو النقد السياسي والاجتماعي ، أو لتصوير العيوب النفسية والاجتماعية .

٣ ـ الأدب الكلاسيكي أدب جاد رصين ، وهو ذو نزعة خلقية ، على طريقة القوم في فهم الأخلاق ، ينتصر فيه الحق على الباطل ، والعقل على القلب ، والواجب على العاطفة . إنه أدب موجّه إلى الإنسان المهذب ، ولذلك يبتعد عن كلّ مشاهد العنف ، والقتل ، وسفك الدماء ، وكل ما يمكن أن يجرح المشاعر المتمدينة . وهو يرعى العادات والتقاليد ، ويمجِّد الفضائل والقيم . .

٤ ـ تحرص الكلاسيكية ـ من الناحية الفنية ـ على جودة الصياغة اللغوية ، وفصاحة التعبير من غير تكلف ولا زخرفة لفظية ولا إسهاب ، وقد تبالغ حتى تؤثر الشكل على المضمون ، وتولي اللغة الفصيحة اهتماماً كبيراً بحيث لا تسمح للعاميات أن تتسلّل إليها .

٥ ـ دعت الكلاسيكية إلى سيطرة العقل على الأدب ، وإلى لجم جماح العواطف القوية ، والغرائز الثائرة ، والسيطرة عليها ، ولذلك اتُّهِم الأدب الكلاسيكي بضعف الخيال وجزئيته ، لأنه شديد الانقياد لأحكام العقل والمنطق .

ولكن العقل الذي تصدر عنه الكلاسيكية ليس ذلك التفكير البارد ، وإنما هو عقل حار يلتقي فيه الخيال والتفكير والإحساس في مزاج متزن .

٦ ـ ومن خصائص الأدب الكلاسيكي الوضوح ، وذلك ناتج عن سيطرة العقل . إن الأدب نشاط عقلي ، وما يصدر عن العقل ويتوجه إلى العقل لا يمكن إلا أن يكون واضحاً ، وهو وضوح في المعاني والعبارات معاً . .

٧ ـ الأدب الكلاسيكي أدب إنساني ، يهتم بالإنسان النمط ، لا بالإنسان الفرد ، فهو يقدّم شخصيات ونماذج بشرية عامة تمثل مشاعر الإنسان في كلِّ زمان ومكان . ومن هنا اتُّهم الأدب الكلاسيكيّ بإهماله للمشاعر الذاتية ، والأزياء المحلية ، والملامح القومية .

والفرد ـ في الأدب الكلاسيكي ـ يذوب في مجتمعه ، يتلاشى في الآخرين ، حتى كأنه لا شخصية فردية له ، ولا يحق لـه أن يشكو آلامه وآماله ، وهمسات نفسه ، ونبضات قلبه ، إلا بقدر معلوم .

٨ ـ وحرصاً من الكلاسيكية على الاتساق والتوازن ورسوخ العادات والتقاليد ، وقيم المجتمع المتوارثة ، مثّل أدبها روح الهدوء والخضوع ، بل روح الثبات والرجعية ، ولذلك انصرف عن موضوعات الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي لما تؤدي إليه من زعزعة الثوابت والأعراف ، وإحداث الفوضى ، وهز الاستقرار . .

وقد لخّص الناقد الفرنسي بول فان تيغم المبادئ الكلاسيكية في العبارات التالية : «محاكاة القدماء ، مراعاة القواعد ، التقيد بأصول اللياقة ، فصل الفنون الأدبية ، أولية العقل على الخيال والحساسية ، الطابع اللاشخصي والجماعي والاجتماعي والأخلاقي في الأدب .

لقد كان هذا الأدب يهدف إلى دراسة الإنسان في جوهره الدائم بغية تحسينه ، وكان لا يترك كبير مكانة للأصالة والبوح والهوى والأحلام وخفايا الأسرار ، ولا لتنوع الأزمنة والأمكنة ، ولا للتسجيل الملون للعالم المادي والطبيعة الخارجية . . »[١] .

وقد شملت الفترة الكلاسيكية في الأدب الأوروبي القرن الثامن عشر بأسره ، وامتدت في بعض البلدان إلى بداية القرن التالي . .[٢] .

وقد خلّف الأدب الكلاسيكي نماذج إبداعية عظيمة ، مازالت خالدة على مرّ الأيام ، كما عرف هذا الأدب كتاباً كباراً من أبرزهم فولتير ، وكورني ، وراسين .

ولكن هذا المذهب الذي اعتمد على إحياء التراث القديم ، واحتذاء نماذجه الإبداعية ، ومقاييسه النقدية كذلك ، كان معرضاً للتجمد في قوالب جاهزة وقواعد صارمة ، ولا سيما بالنسبة لأولئك الأدباء الذين لم يكن عندهم تلك

---

(١) الرومانسية في الأدب الأوروبي : ١/ ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) السابق : ١/ ٢٧ .

المواهب الكافية التي امتلكها أولئك الكتاب العظام ، بحيث تؤهلهم هذه المواهب للإبداع المتميّز الذي يستطيع التغلب على القوالب الجاهزة ، وإبراز التفرد والخصوصية .

ولذلك انهارت الكلاسيكية أمام رياح التغيير الكاسحة التي هبّت عليها من مدرسة ثورية عاتية عدت بداية الأدب الأوروبي الحديث ، وهي المدرسة الرومانسية (الإبداعية) التي سنتحدّث عنها في الصفحات التالية .

ولا نغادر هذه المدرسة من غير أن نشير إلى أن الأدب الكلاسيكي بقي دائماً يمثل النماذج الجادة الرصينة ، التي ينبغي أن توضع بين أيدي الطلاب لتربية الأخلاق ، وتهذيب الذوق ، وتعلم اللغة الفصيحة ، وتنمية الفصاحة والبلاغة عند المتعلمين .

ولعل في الأصل اللغوي لهذه المدرسة (classicism) المشتقة من (class) ما يدل على ذلك ، إذ إن من معاني هذه الكلمة : الطبقة الاجتماعية ، والمنزلة الاجتماعية الرفيعة ، والامتياز ، والتفوق ، والأناقة ، والصف ، وما شاكل ذلك من معانٍ تدل جميعها على الوقار والجدية والرصانة . .[1] .

(١) انظر على سبيل المثال قاموس المورد ، مادة (class) .

نقد الكلاسيكية

اعتمدت الكلاسيكية في أصولها ـ إبداعاً وتنظيراً ـ على محاكاة آداب اليونان والرومان القديمة ، وهي آداب تعبر عن العقائد الوثنية التي صدرت عنها ، من حيث تعدّد الآلهة ، والصراع بينها ، مما لا يتفق ـ بطبيعة الحال ـ مع الإسلام الذي جاء يجتث الوثنية في جميع مظاهرها .

وعظّمت الكلاسيكية هذا التراث القديم ، وعدّته النموذج المثالي الأرفع ، ولذلك لم تُسغ الخروج عليه ، أو التجديد العميق فيه ، والتصور الإسلامي لا يقلّد القديم دائماً ، ولا يعد التراث مقدّساً ، بل يجدّد ويُحْدِث ، وهو يأخذ عن القديم والحديث ما يرى فيه الخير والجمال وفق ضوابط الشرع .

فالتصور الإسلامي للأدب لا يعادي الجديد ، ولا يتعصّب للقديم ، كما أنه لا يتعصب لجنس أدبي دون غيره فيهمل على حسابه الأجناس الأدبية الأخرى ، وهو لا يهتم بالشكل على حساب المضمون ، ولا يبالغ في الزخرفة اللفظية ويسقط المعنى ، بل يجمع بينهما في توازن وتناسب ، لأن الأدب المعتبر هو ثمرة تعانق مضمون نظيف وأسلوب تعبيري متميّز . .

كما أن الأدب الأصيل ينفر من المبالغة في الصنعة ، والتكلف في العبارة ، وقد نهى الإسلام عن التكلف والتقعر وما شاكل ذلك .

وعلى اتفاق الإسلام مع الكلاسيكية في النزعة الخلقية وتغليبها الحق والواجب على العواطف والأحاسيس ، إلا أن له تصوره الخاص عن الأخلاق والحق والواجب النابع من الشرع الحنيف .

والأدب ـ في توجهه الإسلاميّ ـ لا يهمل العواطف الفردية ، ولا يهزأ منها ، وهو لا يلغي الفرد لحساب المجتمع ، ولا المجتمع لحساب الفرد ، بل يعطي كلاً حقه . وهو ليس أدب خضوع أو خنوع للأعراف السائدة ، بل يدعو إلى الثورة عليها إن كانت منافية للحق ، أو متنكّبة جادة الصواب ، ولذلك فهو يعنى بالإصلاح الديني

والسياسي والاجتماعي ، ويحرص على التغيير وتحريك السواكن التي تجافي الأخلاق والدين .

الاتباعية في الأدب العربي الحديث

وعلى العموم فإن عصر إحياء الأدب العربي الحديث من أواخر القرن التاسع عشر إلى الربع الأول من القرن العشرين ، وهو ما يحلو لبعضهم أن يشبهه بالكلاسيكية الأوروبية ، فيسميه «الكلاسيكية أو الاتباعية العربية» كان ـ في صورته العامة ـ ذا توجه فكري سليم ؛ فقد كان أدباء هذه الحقبة من أمثال البارودي وشوقي وحافظ والرافعي والمنفلوطي وكثيرين غيرهم ، يرتدّون إلى منابع الأدب العربي القديم في عصور الازدهار والقوة والأصالة ، ويصدرون عن تراث عربي إسلامي عريق ، وقد أشادوا بقيم الأمة الأصيلة ، وتاريخها المجيد ، وشخصياتها العظيمة ، وانتشلوا اللغة العربية من وهْدة الضعف والركاكة ، وانتصروا للفصحى ، وحاربوا العاميات ، وواجهوا الدعوات الفكرية الهدامة ، ونادوا بالإصلاح السياسي والاجتماعي ، وصوّروا آلام العرب والمسلمين وآمالهم ، ونددوا بالاستعمار والتبعية للغرب .

لقد كان لأدباء «الكلاسيكية =الاتباعية» العربية فضل إحياء الأدب العربي في العصر الحديث ، وردّه إلى الأصالة والقوة ، وإن واحداً مثل شوقي ـ وهو أعظم شاعر أنتجته المدرسة الاتباعية ـ هو في الوقت نفسه زعيم مدرسة المجدّدين ، وقد جمع بين التراث والجديد في اقتدار وجودة . .

صدرت حركة الإحياء الأدبية الحديثة لدى جيل البارودي وشوقي والرافعي وأضرابهم عن روافد من التراث وروافد من ثقافات أجنبية ، ومثل هذا الجيل حلقة الوصل بين القديم والجديد ، ثبَّت أقدام الثقافة العربية الأصيلة التي كان نجمها قد أفل في عصور طويلة من الانحطاط ، ثم اتخذ منها منطلقاً إلى التجديد ، وإلى التحليق بالأدب في آفاق رحبة غنية .

كان شوقي مجدداً ، بل رائد المجددين في هذا العصر ، ولكنه فهم التجديد نسباً موصولة ، ورحماً متصلة ، شوطاً يبدأ من حيث انتهى شوط سابق ، ولم يفهمه ـ فهم بعض أصحاب الحداثة اليوم ـ قطيعة مع التراث ، أو خروجاً تاماً على ما سلف .

لقد استطاع هذا الجيل أن يستفيد من الثقافة الأجنبية التي اطلع عليها ، وأن يتمثلها خير تمثل ، وأن يخصب بها الأدب العربيّ بطاقات جديدة .

أدخل شوقي الشعر التمثيلي ، والشعر التعليمي ، والشعر الرمزي على ألسنة الحيوان .

وعلى اتصال هذا الجيل بالثقافة الأجنبية بقيت الشخصية العربية الإسلامية نابضة بالحياة في أدبهم .

ثم حلا للنقاد ـ وهم يتنسّمون رياح الأدب الغربيّ التي بدأت تهب عاتية ، ويصدرون عن مذاهبه ومسمّياته ـ أن يسلكوا أدباء هذه الفترة في المدرسة (الكلاسيكية) بحجة واهية لا تثبت على التحقيق العلميّ[1] ، وهي أن أدب هؤلاء يلتقي مع أدب كلاسيكيي الغرب في مجموعة من الخصائص ، منها العودة إلى التراث القديم ، والصدور عن ينابيعه الغزيرة ، وتمجيد العقل ، واحترام العرف ، وتقدير القيمة الخلقية .

وعلى العموم كانت مدرسة الإحياء الأدبية مدرسة أصيلة ، تمسكت بالتراث ، وآمنت بالأصالة ، ورأت أن تقدير الهوية الحضارية الذاتية هو المرفأ الأمين الذي تحتمي به سفينة الأمة من الغرق في بحر الغرب المتدفق المغرور الذي يريد أن يجتاح في طريقه كلّ شيء .

---

(١) أنكر بعض الدارسين إطلاق مصطلح (الكلاسيكية) على مدرسة الإحياء كالبارودي ، وشوقي ، وحافظ وأضرابهم (انظر كتاب : حوار مع قضايا الشعر المعاصر : ١٤ ـ ٢٤) .